

## الشعر

### في عصر عبد العزيز بن مروان (1) (65 - 86هـ)

شهدت مصر في العصر الأموي كثيرًا من الحركات السياسية والدينية التي اضطرم بها المجتمع الإسلامي آنذاك، ومما يدلنا على ذلك امتداد حركة ابن الزبير إليها؛ إذ نجح الزبيريون في فرض سلطانهم عليها بعض الوقت، حتى استطاع مروان بن الحكم - الخليفة الأموي - أن يدخلها ويقضي على الحكم الزبيري فيها، ويستخلصها لنفسه، ويولي عليها ابنه عبد العزيز سنة 65هـ، وقد ظل عبد العزيز واليًا على مصر حوالي إحدى وعشرين سنة، وكانت هذه الفترة أكثر ازدهارًا من الناحية الفكرية والأدبية من الفترة السابقة، وفيها انتعش الأدب عامة والشعر خاصة، وصارت مصر تموج بالشعراء الذين أموها وقصدوا إليها، وكان لهم تأثيرهم البالغ في الحياة الأدبية آنذاك.

ويرجع ازدهار الشعر في عصر عبد العزيز إلى أسباب كثيرة، أهمها: استقرار الحالة السياسية، فلم نسمع عن فتن أو اضطرابات كثيرة في ذلك العهد، وطبعي أن يؤدي هذا الاستقرار إلى استقرار المجتمع، واستقرار نفسية الشعراء، وأن يأمنوا على أنفسهم إذا قصدوا ذلك الوالي، وأن تغريهم تلك الحالة المستقرة إلى الوفود إليه. وقد نتج ذلك الاستقرار عن طول الفترة التي قضاها عبد العزيز في الحكم، واهتمامه بشئون إمارته.

وقد ترتب على ذلك الاستقرار السياسي استقرار الحالة الاجتماعية، وتقدم الحضارة وازدهارها، فلقد اهتم عبد العزيز - على سبيل المثال - بمدينة حلوان التي اتخذها عاصمة له، وبنى بها الدور والقصور والمساجد، وأخذ الشعراء يصفون تلك المظاهر الحضارية الجديدة، ويصورونها في شعرهم.

(1) انظر: هذا الموضوع بالتفصيل: في أدب مصر الإسلامية، د. غريب محمد علي، ط دار البيان، سنة 1988م.

ومما يضاف إلى بواعث الازدهار الأدبي كرم عبد العزيز وجوده؛ فلقد كان كريماً جواداً سخياً، ومما يدلنا على ذلك أنه كان له ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره، وكانت له مائة جفنة يطاف بها على القبائل<sup>(1)</sup>، وكان أكثر سخاء وجوداً مع الشعراء، ومن ذلك ما يرويه المقرئ من أن الشاعر نصيباً دخل عليه في مرضه منشداً:

ونزورُ سيّدنا وسيّد غيرنا      لَيْتَ التَّشْكِي كَانَ بِالْعُودِ  
لو كان يقبلُ فديّةً لفديتهُ      بالمُصْطَفِي من طارِ في وتلادي

فلما سمع صوته فتح عينيه وأمر له بألف دينار<sup>(2)</sup>.

ومن تلك الأسباب أيضاً أن عبد العزيز نفسه كان يحب الشعر، ويشجع على نظمه بكل سبيل، وقد أدى ذلك إلى أن يتحول قصره إلى بلاط شعبي ينافس البلاط الأموي في الشام.

ومما يدلنا على حبه الشعر وحثه على إنشاده، أن النصيب دخل عليه مرة، فطلب منه عبد العزيز أن ينشد قوله:

إِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْخَلِيلِينَ رَدَّةٌ      سَوَى ذِكْرِ شَيْءٍ قَدْ مَضَى دَرَسَ الذِّكْرِ

فقال النصيب: هذا ليس لي، وإنما هو لأبي صخر الهذلي، ولكنني الذي أقول:

وَقَفْتُ بِذِي وَدَانَ أَنْشُدْ نَاقَتِي      وَمَا إِنَّ هَيَالِي مِنْ قُلُوصٍ وَلَا بَكْرِ

فقال عبد العزيز للنصيب: لك جائزة على صدق حديثك، وجائزة على شعرك، فأعطاه ألف دينار على صدق حديثه، وألف دينار على شعره<sup>(3)</sup>.

(1) الولاية والقضاة، ص 51.

(2) الخطط، ج 1، ص 391، وانظر: الشعر والشعراء، ج 1، ص 516.

وانظر: حسن المحاضرة، السيوطي، ج 1، ص 587، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط عيسى البابي الحلبي، سنة 1967، وزهر الآداب، ج 2، ص 279.

(3) انظر: الأغاني، ج 1، ص 132 وما بعدها، ط عز الدين، بيروت.

ولم يكن عبد العزيز يحب الشعر فحسب؛ بل كان يتذوقه ويحسن نقده، ويفاضل بين الشعراء (1).

وعلاوة على ذلك، فقد كان ولي العهد بعد عبد الملك، وقد أدى هذا الأمر إلى أن تتعلق آمال الشعراء به، وأن يُخطبوا وده.

وهذه الأسباب كلها وغيرها أدت - بطبيعة الحال - إلى انتعاش الحركة الفكرية عامة، وازدهار الحركة الشعرية خاصة.

مظاهر انتعاش الحركة الشعرية في عصر عبد العزيز:

لعل أهم مظاهر انتعاش تلك الحركة، يتلخص في الكثرة والتفوق والتنوع، ونعني بالكثرة كثرة الشعراء، وخاصة الذين اتصلوا بعبد العزيز، وفيهم من هو مشهور معروف، مثل جميل بثينة، وكثير عزة، وعبيد الله بن قيس الرقيات، والنصيب، وأيمن بن خريم، والأحوص، وهؤلاء كلهم وافدون، ومنهم من كان مغموراً مقيماً في مصر، مثل أمية ابن أبي عائذ، وذو الشامة بن عمرو، والمثلم البلوي، وزهير بن قيس البلوي، وغيرهم.

والكثرة أيضاً تعني كثرة الشعر؛ فلقد كثر الشعر في ظل عبد العزيز كثرة لافتة للنظر، والكثرة نعني بها طول النص، ففي الفترة السابقة لم نكد نعثر إلا على قصيدة أو اثنتين، أما في هذه الفترة فلقد كثرت القصائد وطالت.

أما التفوق فنقصد به الجودة؛ فلقد جود الشعراء في صنعتهم الشعرية، واهتموا بالصياغة، وأحكموا التركيب.

ونعني بالتنوع تنوع الأغراض الشعرية وتعددتها، وهنا نود أن نقف عند أبرز هذه الأغراض.

(1) انظر: شيئا من مفاضلاته بين الشعراء في الأغاني، ج 1، ص 127 وما بعدها.

## أ- المدح:

كان المدح في عصر عبد العزيز أكثر الأغراض الشعرية التي نظم فيها الشعراء، وكانوا - في الحقيقة - ييغون من وراء ذلك الرغد والعطاء، وكان الخليفة نفسه معطاء، وبمعنى آخر، أن المدح لم يكن آنذاك حسبة لوجه الله، إنما تحول به الشعراء إلى التكسب والارتزاق، ومما يدلنا على ذلك قول النصيب:

وإنَّ وراءَ ظهري يا ابنَ ليلي      أناسًا ينظرونَ متى أءُوبُ  
أمامةً منهمُ ولمَّا قبيها      غداةَ البينِ في أثري غروبُ  
فأتبعُ بعضنا بعضًا فلسنا      نثيبُكَ لكن الله المثيبُ (1)

فالشاعر هنا ينتظر الأعطية، ويرغب في الهبات، ويحاول من خلال ذلك أن يثير عطف الخليفة عليه؛ إذ يشير إلى أن هناك أناسًا ينتظرون عودته، ورغم إعلانه في النهاية أن المثوبة من الله، فإنه يحاول أن يقدم لعبد العزيز مثوبة من نوع آخر، وهي تسجيل محامده وتخليدها في شعره؛ حيث يقول في قصيدة أخرى:

فمنك العطاء ومني الثناء      بكُلِّ مُحِبِّةٍ سائرهِ (2)

والحق أن لعبد العزيز نعمًا سابغةً وفضلاً غامراً على الشعراء خاصة، وعلى كل من وفد إليه عامة، وهذا ما يشير إليه قول النصيب:

لعبدِ العزيزِ على قومه      وغيرهم نِعَمٌ غامره  
فبابُكَ ألينُ أبوابهم      ودأركَ مأهولةٌ عامره  
وكتفك حين تَرى السائلِ      من أُنْدَى من الليلةِ الماطرهِ (3)

(1) الأغاني، ج 1، ص 131.

(2) الأغاني، ج 1، ص 129، وانظر: الشعر والشعراء، ج 1، ص 412.

(3) الأغاني، ج 1، ص 129.

ويشير إليه أيضًا قول كثير:

فُبُورِكَ مَا أَعْطَى ابْنَ لَيْلٍ بِنِيَّةٍ وَصَامَتْ مَا أَعْطَى ابْنَ لَيْلَى وَنَاطِقَهُ (1)

لقد مدح الشعراء جود عبد العزيز وكرمه، ووقفوا عند هذا الأمر كثيرًا، إلى درجة أنهم وصفوا عطاءه بفيض النيل؛ بل هو النيل الفياض خيرًا وبركة على مصر، وهذا ما يظهر في قول النصيب:

فَبَشَّرَ أَهْلَ مِصْرَ فَقَدْ أَتَاهُمْ مَعَ النَّيْلِ الَّذِي فِي مِصْرَ نَيْلٌ (2)

وكما امتدحوا ذلك الأمر كثيرًا، فقد امتدحوا كلام عبد العزيز الذي يدل على عقلية راجحة وفكر ثاقب وبعيد نظر، وهذا ما يذكره النصيب في قوله:

يَقُولُ فَيُحَسِّنُ الْقَوْلَ ابْنَ لَيْلَى وَيَفْعَلُ فَوْقَ أَحْسَنِ مَا يَقُولُ (3)

ومن الأمور التي وقف عندها الشعراء يمتدحونها شجاعة عبد العزيز، وقرنوا ذلك بكرمه، فهو بالإضافة إلى أنه جواد سخي، فهو بطل صنيدي، وفارس مغوار، وحسام مصلت، وموت زوام، والحق أن بعضًا من هذه المعاني يظهر في قول الأحوص:

أَغْرُرُ لَمَزْوَانَ وَلَيْلَى كَأَنَّهُ حُسَامٌ جَلَّتْ عَنْهُ الصَّيَافِلُ قَاطِعُ

وَأَنَا عَدَانَا عَنْ بِلَادِ نُجَيْهَا إِمَامٌ دَعَانَا نَفْعُهُ الْمَتَّابِعُ (4)

وامتدحوا إلى جانب ذلك محنته الكريم، وأصله الشريف، وأرومته الأصيلة، فهو خير فرع لأكرم منبت، كما يقول جميل بثينة:

(1) ديوان كثير، ص 309، جمع وشرح د. إحسان عباس، ط دار الثقافة، بيروت، 1971.

(2) الأغاني، ج 1، ص 135.

(3) الأغاني، ج 1، ص 135.

(4) طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجهمي، ج 2، ص 662، ط المدني، سنة 1974م، تحقيق: أحمد محمد

أَبَا مَرَوَانَ أَنْتَ فَتَى قُرَيْشٍ      وَكَهْلَهُمْ إِذَا عُدَّ الْكُهُولُ  
 نَمَا بِكَ فِي الدُّوَابَةِ مِنْ قُرَيْشٍ      بُنَاةُ الْمَجْدِ وَالْعَزُّ الْأَيْلُ  
 أَرْوَمٌ ثَابِتٌ يَهْتَزُّ فِيهِ      بِأَكْرَمٍ مَنَبِتٍ فَرْعٌ أَصِيلٌ<sup>(1)</sup>

وبالجملة فقد امتدح الشعراء صفات عبد العزيز كلها، وأشادوا بكل فضائله وخلائقه، وهو - دوماً - السابق إذا ما تبارى الناس في ميدان الأخلاق، وتسابقوا إلى حلبة المكرمات، كما يقول كثير:

إِذَا ابْتَدَرَ النَّاسُ الْمَكَارِمَ بَدَّهُمْ      عَرَاضَةٌ أَخْلَاقِ ابْنِ لَيْلٍ وَطُولُهَا<sup>(2)</sup>

### ب- الوصف:

كان المنتظر أن يقف الشعراء عند المتغيرات الحضارية الجديدة، يصفونها ويتحدثون عنها، لكن ذلك لم يحدث كثيراً، ولعلمهم قد شغلوا بالمدوح أكثر من انشغالهم بالمكان؛ لأن العطاء كان همهم الأكبر، ومع ذلك لا نعدم وجود مقطوعات في الوصف، ولعل من أهم ما وصفه الشعراء - في هذه الفترة - وصف مصر، التي تختلف طبيعتها عن الأمصار الإسلامية الأخرى، وأهم ما قفوا عنده في مصر مدينة حلوان، التي بناها عبد العزيز، وأحكم غرسها، واتخذها حاضرة له، وبنى فيها الدور والقصور والمساجد، وأحسن عمارتها، وعن هذه المدينة يحدثنا ابن قيس الرقيات قائلاً:

سَقِيًّا لِحُلْوَانَ ذِي الْكُرُومِ وَمَا      صَتَّفَ مِنْ تَيْنِهِ وَمِنْ عِنَبِهِ  
 نَخْلٌ مَوَاقِيرٌ بِالْفَنَاءِ مِنْ الـ      بَرْنِي يَهْتَزُّ ثُمَّ فِي سُرْبِهِ<sup>(3)</sup>

(1) المصدر السابق، ج 2، ص 674.

انظر: ديوان جميل، تحقيق د. حسين نصار، ص 168، ط دار مصر للطباعة 1979.

(2) ديوان كثير، ص 34.

(3) ديوان ابن قيس الرقيات، ص 13، محمد يوسف نجم، ط بيروت 1958.

ومن الأمور التي وقف عندها الشعراء يصفونها: المعارك التي دارت بين عبد العزيز وبعض خصومه، وذلك مثل المعركة التي دارت بينه وبين ابن جحدم والي ابن الزبير، وفي وصف هذه المعركة يقول عبد الرحمن بن الحكم:

أَلَاهْلُ أَتَاهَا عَلَى نَأْيِهَا      نِبَاءُ التَّرَاوِيحِ وَالخُنْدِقِ  
وَجَاشَتْ لَنَا الْأَرْضُ مِنْ نَحْوِهِمْ      بَحْيِي تَجِيَّبَ وَمِنْ غَافِقِ  
فَلَوْ كُنْتَ رَمْلَةٌ شَاهِدْتَهُ      تَمَيَّيْتُ أَنَّكَ لَمْ تُخْلَقِي (1)

وكما وصفوا بعض الأماكن وما استجد بها وبعض المعارك وما دار فيها، فقد وصفوا - إلى جانب ذلك - بعض رحلات عبد العزيز والسفن التي كان يستخدمها في تلك الرحلات، ومن ذلك وصف عبيد الله بن قيس الرقيات رحلة لعبد العزيز إلى الإسكندرية، كانت سنة إحدى وثمانين، يقول ابن قيس الرقيات:

غَدَوْنَا مِنْ دَوْرَجِ الْكِرْيَاوِ      نِ حَيْثُ سَفِينُهُمْ حُزْقُ  
فَلَمَّا أَنْ عَلَوْنَا النَّيْبَ      لَ وَالرَّايَاتُ تَحْتَفِقُ  
رَأَيْتُ الْجَوْهَرَ الْحَكْمَ      وَاللِّدْيَابِجَ يَتَأْتَلِقُ  
سَفَائِنٌ غَيْرٌ مُقَرَّفَةٍ      إِلَى حُلُوانَ تَسْتَبِقُ (2)

### ج - الفخر:

لا يقابلنا من الفخر في شعر هذه الفترة إلا مقطوعة واحدة للمثلث البلوي، يفخر فيها بقيس بن أوس البلوي، الذي سبقه عبد العزيز، فجاء قيس سابقاً، وهي مقطوعة تذكرنا ببعض الأحداث الجاهلية، مثل سباق داحس والغبراء لكنها تدل على سعة صدر الوالي

(1) الولاة والقضاة، ص 44.

(2) الولاة والقضاة، ص 53، وانظر: الديوان، ص 158، وفيه (غير مقلعة).

وأفقه، وتدلل على الحرية التي كفلها لشعبه، فلم يعاقب قيسًا، ولم يضق ذرعًا بالمثلم، يقول  
المثلم:

تداركنا قيسُ بنُ أوسٍ بسبِّه      وسارَ منَ البلقاءِ غيرَ مُكذِّبِ  
يسومُ ويستدرِي الغلامَ عنائِه      إذا ما جرتُ منَ غائطٍ متصوِّبِ<sup>(1)</sup>

#### د- الهجاء:

وكما لم يقابلنا من الفخر إلا مقطوعة واحدة، فكذلك لا يقابلنا من الهجاء إلا قصيدة  
لأيمن بن خريم، قالها يعرض فيها بعبد العزيز بعد أن حدثت بينها جفوة، استأذن أيمن  
على إثرها عبد العزيز، فخرج إلى الشام قائلًا:

رَكِبْتُ مِنَ الْمُقَطَّمِ فِي جُمَادَى      إِلَى بَشْرِ بْنِ مِرْوَانَ الْبَرِيدَا  
وَلَوْ أَعْطَاكَ بِشْرٌ أَلْفَ أَلْفِ      يَرَى حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَزِيدَا  
أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَقِمْ بِبَشْرِ      عَمُودَ الدِّينِ إِنَّ لَهُ عَمُودَا  
وَدَعْ بِشْرًا يُقَوِّمَهُمْ وَيُحْدِثِ      لِأَهْلِ الزِّيغِ إِسْلَامًا جَدِيدَا<sup>(2)</sup>

ويبدو أن الشاعر قد ظلم عبد العزيز؛ إذ لم نجد من الهجاء سوى هذه القصيدة، التي  
تدل على أن أيمن بن خريم لم يحفظ الود؛ بل أنكر المعروف واختر اللذين أسديا إليه من  
عبد العزيز.

#### هـ - الرثاء:

الرثاء هو فن تأبين الموتى، ولقد تفنن الشعراء في تأبين عبد العزيز وابنه الأصبح،  
وأكثروا من ذلك إكثارًا، فذرفوا العبرات، وسكبوا الدموع غزيرات، وبكوا أيامًا ماضية  
وعزًّا عاشوه في أكناف عبد العزيز، ومضوا يخلدون ذكره في شعرهم، ويتحدثون عن

(1) المؤلف والمختلف، الأمدي، ص 181، ط دار الكتب العلمية، بيروت ط ثانية.

(2) الأغاني، ج 21، ص 8.

خصاله وأعماله، ويرون أن مصر بعد عبد العزيز لن تورق بالخير، ولن تونق، كما يقول ذو الشامة:

فَمَا مِصْرِي بَعْدَ عَبْدِ الْعَزِيزِ      زِ وَالْأَصْبَغِ الْخَيْرِ بِالْمُونِقَةِ  
فَإِنْ تَكُ مِصْرُ أَشَارَتْ بِهَا      إِلَى الشَّرِّ يَوْمًا يَدُّ مُوبِقَةِ  
فَقَدَمَا تَقَرَّرُ بِمِصْرَ الْعِيُو      نُ فِي لَدَّةِ الْعَيْشِ مُحْدَوْدَقَةِ<sup>(1)</sup>

لقد تجرع الشعراء الألم غصصًا، وخيم الحزن على أقطار قلوبهم وأرجاء نفوسهم؛ فنفوسهم قد تحطمت على صخرة الموت، وساءت أحوالهم، فمضوا يصفون لوعتهم وحسرتهم، ويكون بكاءً مرًّا أليماً؛ فهم أحق الناس بالبكاء، وذهبوا يتحدثون عن ماضي عبد العزيز وأمجاده، وذهبوا يعددون مفاخره ومآثره، يقول سليمان بن أبان الأنصاري:

فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْبِي الْمَكَارِمَ وَالْعُلَا      وَمَنْ ذَا الَّذِي يَهْدِي لَهُ بَعْدَكَ السَّفْرُ  
فَكُنْتَ حَلِيفَ الْعُرْفِ وَالْخَيْرِ وَالنَّدَى      فَمِثْنُ جَمِيعًا حِينَ غَيْبِكَ الْقَبْرُ  
فَبَعْدَكَ لَا يُرْجَى وَليَدْ لِنَفْعَةٍ      وَبَعْدَكَ لَا يُرْجَى عَوَانٌ وَلَا بَكْرُ<sup>(2)</sup>

إنه الرزء الجلل والداهية الدهياء، التي لم ير ولم يسمع بمثلها، والتي فجع بها الشعراء ونكبوا، ولا حيلة لهم أمامها إلا البكاء أو الصبر، كما يقول النصيب:

فَإِنْ أَبْكِهِ أُعْذَرُ وَإِنْ أَغْلِبَ الْأَسَى      بِصَبْرٍ فَمِثْلِي عِنْدَمَا اشْتَدَّ يَصْبِرُ<sup>(3)</sup>

لقد ندب الشعراء حظهم العاثر وماضيهم الغابر، فامتلاً شعرهم زفرات وحسرات، وأخذوا يتمنون عودة الأيام التي نعموا فيها بالاتصال بعبد العزيز، ولكن هيهات، فليس

(1) الولاية والقضاة، ص 56.

(2) الولاية والقضاة، ص 56، 57.

(3) الأغاني، ج 1، ص 140.

أمامهم إلا التسليم المطلق بقضاء الله، ومن ثم فقد كتب على باب قصر عبد العزيز قول الشاعر:

أَيْنَ رَبِّ الْقَصْرِ الَّذِي شَيَّدَ الْقَصْدَ      رَ؟ وَأَيْنَ الْعَبِيدُ وَالْأَجْنَادُ؟  
أَيْنَ تِلْكَ الْجُمُوعُ وَالْأَمْرُ وَالنَّهْ      يُي وَأَعْوَانُهُمْ وَأَيْنَ السَّوَادُ؟<sup>(1)</sup>

هذا القول الذي يدل على المرارة المريرة والحزن الدفين، على ما أصاب القصر من خراب وتدمير، وعلى ضياع الملك وتبديد الشمل.

إنها مصيبة - رغم هذا التسليم المطلق لله - لن ينساها الشعراء أبداً على مر الدهور وكر السنين، وهذا ما يشير إليه قول النصيب:

تَاللَّهِ أَنْسَى مُصِيبَتِي أَبَدًا      مَا أَسْمَعْتَنِي حَيْنَهَا الْإِبْلُ  
وَلَا التَّبَكِّي عَلَيْهِ أَعْوُلُهُ      كُلُّ الْمُصِيبَاتِ بَعْدَهُ جَلُّ<sup>(2)</sup>

\*\*\*

(1) حسن المحاضرة، ج 1، ص 587.

(2) الأغاني، ج 1، ص 139.